الإِنجاز والتأثير للأنماط التركيبية في قصيدة "تنويمه الجياح" للشاعر محمد مهدي الجواهري^(*)

الدكتور خالد يوسف الوردات
وزارة التربية والتعليم –
المملكة الأردنية الهاشمية

الدكتور خالد قاسم بني دومي
جامعة اليرموك – كلية الآداب –
قسم اللغة العربية وآدابها

الملخص:

تعدّ النداءية مجالاً مهماً في معالجة اللغة ضمن استعمالها في النشاط الاجتماعي، وتمثّل أفعال الكلام جوهر النداءية؛ ذلك أنّ نظرية أفعال الكلام في طور تأسيسها وضبط منهجيتها فيما بعد قد توجّهت بناءً على رفض تضيق طاقات اللغة وحصرها في الوصف التقريري، فالفعل الكلامي بناءً على مكوناته يتضمّن دلالة تحمل علة الإنجاز والتأثير. وقد انبنت نظرية أفعال الكلام على تقسيم الأفعال الكلامية إلى خمسة أقسام: الإخباريات والأدائيات والالتزاميات والتعبيريات والإعلانيات.

تقارب هذه الدراسة قصيدة "تنويمه الجياح" للشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري التي تُعدّ منظومة شعرية فريدة، لاعتمادها على الأفعال الأدائية التي تؤسّس لقوة إنجائية مركزية، وتحقّق تأثيراً في المتلقّي، ولجمعها بين المتناقضات. اتّبعَت الدراسة المنهج الوصفي الذي كشف عن ركوز الشاعر إلى خصيصة التكرار للتمط التركيبي: الأمر؛ إذ كرّر فعل الأمر (نامي) ثماني وخمسين مرّة، والمنهج التحليلي الذي بيّن أنّ هذا التكرار غير عبثي، وأنّه لا يتغيّر الإنجاز المباشر، وهذا يعني أنّ الشاعر قد اتّخذ الفعل الأدائي نواة لتشكيل بنية عميقة تأسست بناءً على المجاورة بين الطلب وما يمنع إنجازه بطريقة مباشرة؛ ليمكن المتلقّي من فهم ما وراء المستوى السطحي، وتحقيق ما تشكّله الأفعال الكلامية بأنواعها من حيثيات إنجائية وظّفها الشاعر لصنع إنجاز مركزي متأتّ من تنوع الوضعيات الإنجائية. الكلمات المفتاحية: أفعال الكلام، الإنجاز، التأثير، الأفعال الأدائية، تنويمه الجياح.

(*) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (٨٥) يناير ٢٠٢٥.

The achievement and effect of compositional patterns in the poem “Tanwimat Aljiaa” by the poet Muhammad Mahdi Al-Jawahiri

Abstract:

Pragmatics is an important area in language processing within its use in social activity, and speech acts represent the essence of pragmatics. This is because the theory of speech acts, its establishment and its methodology adjustment later on, was based on the rejection of narrowing the energies of language and confining them to declarative description. The speech act, based on its components, includes a significance that carries the reason for achievement and effect.

The theory of speech acts was based on dividing speech acts into five categories: declarative, performative, obligatory, expressive, and declarative.

The study deals with the performative actions in the poem “Tanwimat Aljiaa” by Muhammad Mahdi Al-Jawahiri, which establishes a central performance force and achieves a significant impact on the recipient. Based on its combination of contradictions, the poet took the performative action as a nucleus for forming a deep structure that was established based on the juxtaposition between the request and what prevents its direct fulfillment, so that the recipient can understand what is beyond the superficial level, and realize what verbal acts of all kinds constitute in terms of achievement aspects that the poet employed to create a central achievement resulting from the diversity of achievement situations.

Keywords: pragmatics, speech acts, achievement, influence, performative acts, directives, informative acts, “Tanwimat Aljiaa”

مشكلة الدراسة:

غني عن البيان أن دراسة النص الشعري تمثل إستراتيجية مهمة لفهم الوظيفة التي تحملها الرسالة الشعرية، فالقصيدة رسالة شعرية تحمل فحوى الإنجاز والتأثير في المتلقي، وتحتاج إلى آلية تحدّد معالمها.

أهميّة الدّراسة:

تتركز أهميّة الدّراسة في محاولة تحصيل المعنى والقصد من كلّ مقولة، أو كلّ فعل قوليّ ينهض بهدف الاستعمال في الحالة الشعريّة الخاصّة بقصيدة "تنويمه الجياح" التي انبنت من أنماط تركيبية تكريرية قصد إليها الشّاعر.

هدف الدّراسة:

تسعى الدّراسة إلى إسقاط عناصر الفعل الكلاميّ على أبيات قصيدة "تنويمه الجياح"؛ بغية الكشف عن القوّة الإنجازيّة والتأثيريّة لأنماط التركيبيّة في القصيدة؛ كالأمر والنداء، وتحديد الدّور الإنجازيّ المباشر وغير المباشر لأفعال الكلام فيها، وتسهيل الضّوء على مسألة تكرار نمط تركيبيّ من التّوجيهات، وتحديد القصد من هذا الاستعمال المتكرّر.

منهج الدّراسة:

تقتضي الدّراسة توظيف المنهج الوصفيّ التحليليّ بغية الكشف عن القوّة الإنجازيّة والتأثيريّة لأنماط التركيبيّة؛ مثل الأمر والنداء في قصيدة "تنويمه الجياح"، وقد أفادت هذه الدّراسة من التحليل في الوصول إلى تحديد الدّور الإنجازيّ المباشر وغير المباشر لأفعال الكلام في القصيدة.

أسئلة الدّراسة:

- هل تُشكّل الأنماط التركيبيّة في "تنويمه الجياح" قوّة إنجازيّة ذات حالة مخصوصة؟
- ما الدّور الإنجازيّ الذي تؤدّيه أفعال الكلام في "تنويمه الجياح"؟
- كيف شكّلت عمليّة تكرير النمط التركيبيّ من التّوجيهات إنجازاً مركزياً؟

المقدّمة:

نشأت التّداوليّة في ظلّ الفلسفة، وفرضت علائق مع المستويات اللّغويّة؛ فظهرت في صورة ائتلاف لنظريّات كثيرة أهمّها أفعال الكلام، وحين الحديث

عن أفعال الكلام من النشأة والتأسيس إلى الضبط والمنهجية، نجد أنها في مادتها الأولى صورة صوتية وتركيبية يلزمها المعنى والقصدية، والقصد إلى هدف معين قد يكون إخباراً أو إنجازاً، وما ينشأ عن هذا الإنجاز من تأثير في طرفي الخطاب.

وقد جعلت فكرة دراسة النص الأدبي ومقارنته في ضوء التداولية قراءة العمل الأدبي فضاءً واسعاً يبني عليه المفهوم الذي يتعالق مع الجانب الدلالي بترابط واضح؛ ذلك لأن النص الأدبي يتضمن مستويات سياقية ومقامية تفضي إلى مسار تشخيصي توفّر الأبعاد التداولية المحيطة بالنص الأدبي بناء على الأفعال الكلامية تحديداً. وتعدّ نظرية أفعال الكلام أهمّ الأبعاد التداولية التي تؤدي وظيفة الفهم والتطبيق في جوّ تأثيري تحمله الرسالة الشعرية المنقولة للمتلقّي ضمن القصيدة.

والقصيدة رسالة شعرية تحمل فحوى الإنجاز، ومدى قوة الإنجاز التي تحدّد معالمها أفعال القول المعبر عنها بالرموز الصوتية، أو السلاسل الصوتية في بنية تركيبية، وما ينتج عنها بعد ذلك من تأثير.

وتعدّ أفعال الكلام من الاتجاهات اللسانية الحديثة، التي تتعامل مع المنتج اللغوي على أنه نشاط استعمالي مبني على المعنى والفهم والإفهام، من أجل التحقيق والإنجاز، فلم تعدّ مسألة معالجة اللغة على أنها جملة فيها طرفا الإسناد وكفى، بل اتسع ذلك إلى تلمس أقصى ما يمكن تحقيقه من المقولات الإسنادية، وهذا مجال التركيز على وظيفة اللغة ومعالجتها في ضوء اللسانيات الحديثة.

ويقتضي منطق استعمال اللغة في ضوء التداولية وأفعال الكلام الوجود الفعلي لمصدر أفعال الكلام وهو المتكلم، وما يحيط بهذه الأفعال من ظروف استدعت إصدارها، ووجود الطرف الآخر الذي يستقبل هذه الأفعال وهو المتلقّي الذي يحاول توظيف هذه الأفعال بما يتناسب مع ما يريد المرسل ويفرضه السياق؛ ليكون هذا المنتج تواصلياً فاعلاً، ويتجاوز حدود التواصل إلى

مستويات أخرى تتسم بالإنجازية، والتأثير.

تتناقش هذه الدراسة الموسومة بـ (الإنجاز والتأثير للأنماط التركيبية في قصيدة "تنويمة الجياح" للشاعر محمد مهدي الجواهري) مفهوم التداولية ونشأتها، وعلاقتها بعلم الدلالة والبلاغة، وذلك ضمن إطارين: تنظيري يتمثل في الحديث عن أفعال الكلام، وآلية التحليل، وتطبيقي يتمثل في إسقاط نظرية أفعال الكلام على قصيدة محمد مهدي الجواهري "تنويمة الجياح" وتحليل القصيدة في ضوء الأبعاد الثلاثة لأفعال الكلام، بدءاً من فعل القول، ثم فعل الإنجاز، وانتهاء بفعل التأثير، بغية تقديم فهم جديد للعمل الأدبي، والخلوص إلى النتائج بناء على مجريات البحث والتحليل.

مفهوم التداولية:

يرجع المصدر (التداولية) في اللغة إلى مادة دال - يدؤل - دؤلاً بمعنى انتقل من حال إلى حال، وأدال الشيء جعله متداولاً، وتداولت الأيدي الشيء أخذته هذه مرةً، وتلك مرةً، وقال يونس في حديث الدعاء: حدّثني بحديث سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يتداوله بينك وبينه الرجال، أي لم يتناقله الرجال وترويه واحداً عن واحد (ابن منظور، د.ت). وهذا يدل على أنّ المفهوم اللغوي للتداولية يشير إلى التناقل والتبادل.

أمّا في الاصطلاح فيرجع مصطلح التداولية بمعناه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي (تشارلز موريس) الذي عرفها بأنها جزء من السيميائية تهتم بدراسة العلاقة بين العلامة ومستعملها (فرانسواز أرمينكو، ١٩٦٨). وأول من استخدم مصطلح التداولية من العرب مقابل البراجماتية هو الفيلسوف اللغوي طه عبد الرحمن سنة ١٩٧٠ (فرانسواز أرمينكو، ١٩٦٨).

غير أنّ "أوجز تعريف للتداولية وأقره إلى القبول هو: دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction" (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢)؛ فهذا التعريف "يشير إلى أنّ المعنى ليس شيئاً متصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في

تداول اللّغة negotiation بين المتكلم والسّامع في سياق محدّد (مادّي واجتماعيّ ولغويّ)، وصولاً إلى المعنى الكامن في كلامٍ ما" (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢).

وعرّفت أيضاً بأنّها "مذهب لسانيّ يدرس علاقة النّشاط اللّغويّ بمستعمليه، وطرق وكيفيّات استخدام العلامات اللّغويّة بنجاح، والسّياقات والطبقات المقاميّة المختلفة التي ينجز ضمنها "الخطاب"، والبحث عن العوامل التي تجعل من "الخطاب" رسالة تواصلية واضحة و"ناجحة"، والبحث في أسباب الفشل في التّواصل باللّغات الطّبيعيّة" (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥).

وبالنّظر في التعريفات السابقة يمكن تعريف التّداوليّة بأنّها منهج معالجة اللّغة حال استعمالها في النّشاط الكلاميّ النّاشئ في جوّ سياقيّ يتّصل فيه المتكلم والمتلقّي ضمن مقام يبحث في خروج النّصّ إلى سياق اجتماعيّ يجعل منه رسالة تواصلية ناجحة تتجاوز حدود التّواصل.

نشأة التّداوليّة:

لقد تزامنت نشأة التّداوليّة مع نشأة العلوم المعرفيّة التي ظهرت رداً على التّيّار السلوكيّ (جاك موشلار، أن رويول، ٢٠٠٣)، والأمر الذي لا يُختلف فيه أنّ اللسانيّات التّداوليّة لها مرجعيّة فلسفيّة ساعدت على وجودها علماً مستقلاً، ويمكن عدّ الفلسفة التّحليلية أساساً لظهور أهمّ جزئيّات التّداوليّة، وهي أفعال الكلام، ويتّضح من الحديث عن الأفكار المتعلّقة بالفلسفة التّحليليّة في بداياتها علاقة تأسيسية سمحت بظهور التّداوليّة، فالفلسفة التّحليليّة تميّز بين المعنى والمرجع، وترتبط بين الإحالة والإقصاء، وتتميّز بين اسم العلم والمحمول (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥)، حيث إنّ وظيفة اسم العلم الإشارة إلى شيء فرديّ معيّن، وأمّا وظيفة المحمول فهي دلّالته على التّصوّر، والتّصوّر هو المعنى العامّ الذي يندرج تحته جزئيّات عديدة، فاسم العلم قام بالمعنى بمفرده؛ لذلك لا يقوم بوظيفة الحمل، ولا يقوم الحمل بوظيفته (زيدان، محمود فهمي، ٢٠٠٠).

ويضاف إلى الفلسفة التحليلية اتجاه الوضعية المنطقية الذي جعل أصحابه للغة وظيفتين، هما: الوظيفة المعرفية التي تجعل منها أداة تصف واقع العالم الخارجي، والوظيفة الانفعالية الخاصة بالتعبير عن المشاعر والانفعالات النفسية (عبد الحق، صلاح إسماعيل، ١٩٩٣).

ومع وجود اتجاهات للفلسفة التحليلية تعنتي بالظاهرة اللغوية، فإن إصاقها بالتداولية في دراسة اللغة هو اتجاه (فيتغنشتاين) الذي ركز على الجانب الاستعمالي للغة (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥)، وقد تطوّر هذا المنهج على أيدي الفلاسفة اللغويين مثل (أوستين) و(سيرل)، و(غرابس)، وكان يركّز في بداياته على أفعال الكلام، ثم اتسعت دائرة اهتمامه لتصل إلى تحليل المحادثة والتّركيز على الاستعمال اللغويّ في الوقت نفسه، وركز أصحاب هذه النظرية على طريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية من خلال مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وهو أساس التداولية (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢).

وظهرت فكرة التداولية بناء على اهتمام الفلسفة التحليلية بالمعنى والتّصوّر، ومن ثمّ التّركيز على الجانب الاستعمالي للغة، لتصبح فيما بعد وظيفة اللغة للتواصل تستدعي وجود مرسل ورسالة ومستقبل يفسر هذه الرسالة؛ لتكتمل المسألة التداولية اللغوية.

التداولية والدلالة:

علم الدلالة هو "العلم الذي يدرس المعنى" أو "ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرّمز حتى يكون قادرًا على حمل المعنى" (عمر، أحمد مختار، ٢٠٠٩)، وهذا يفيد أنّ علم الدلالة يبحث في المعنى الناتج من التراكيب المترافقة بعضها ببعض، والتي تنتج المعنى الحرفي الذي يتجاوز كلّ ما هو خارج السياق، ودلالة التّركيب المتحصّلة من الدلالة الدقيقة لكلّ مفردة في التّركيب توصلنا إلى محصلة دلالية نهائية تشكّل خلاصة البناء والمعنى معًا (شاهين، أحمد فهد صالح، ٢٠١٥).

ويتيح علم الدلالة مجموعة من الدلالات العامة للمفردات التي توفرها

المعاجم اللغوية، وأخرى ذات دلالة خاصة تفرضها طبيعة العلاقة الترابطية بين المفردات داخل السياق أو التركيب، فالفعل (ضرب) في جملة (ضربت له) مثلاً يغير الفعل (ضرب) في جملة (ضربت له موعداً) من ناحية دلالية، وما يقدمه علم الدلالة من خدمة للمعنى لا تصل إلى حقيقة المقصد لأي تركيب مستعمل؛ لأنه قد يصل إلى غاية المتكلم في سياق معين، وهنا يبدأ دور التحليل التداولي للوصول إلى المعنى التداولي الذي يتجاوز سطحية الدلالة، بناء على العناصر المكونة للحدث الكلامي من أجل إنتاج معانٍ تداولية وظيفية (شاهين، أحمد فهد صالح، ٢٠١٥)، وهذا يسوّغ الترابط بين التداولية والدلالة، ويثبت أنّ علم الدلالة يشكّل مرجعية للتداولية؛ لأنه يقدم المعنى الخاص بالتركيب، والسيّاق، والبحث من خلال هذه الدلالة عن سمات التّواصل، وكفاءة الاستعمال .

التداولية والبلاغة:

يشير مفهوم البلاغة "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" إلى ما يهتم به علم البلاغة من البحث في العلاقة بين تراكيب الكلام، وما يستلزمه الحال التي تقتضي متابعة حال المرسل، والمتلقي والعلاقة بينهما ورصد ملابسات الخطاب وحيثياته المختلفة، وهذه نقطة التقاء التداولية مع وظيفة البلاغة عند تشكيل الخطاب اللغوي وتحليله، وبناء على مفهوم التداولية الذي يشير إلى العناية باستعمال المعنى مرتبطاً بعناصر الموقف التواصلي، فإنّ التداولية تتشارك مع البلاغة في جزئية مقتضى الحال (شاهين، أحمد فهد صالح، ٢٠١٥).

فالبلاغة تهتمّ بسياق الكلام ومناسبته للحال، وملابسات الموقف بين عناصر التّواصل، لتحقيق وظيفية اللغة بوصفها أداة لتداول المعاني، ولأسباب تواصلية تشكّل تأثيراً يقصده المتكلم بعبارات يرسلها إلى المتلقي، فيحقق المقصد منها.

إنّ ما يقصد إليه المتكلم من دلالات ترتبط بكلامه يشكّل جانباً مهماً في فهم المعنى، وهذا يحدّد دور المتكلم البلاغي، حيث يختار الفصيح من الكلام،

ويتجنّب التعقيد في أداء المعنى ويتماشى مع دوره في تداولية الخطاب، ويعتمد في هذا الدور على الأدوات البلاغية من البيان، والكناية، وما تستدعيه الحالة من الاستعانة بالمعاني (التقديم والتأخير والخبر والإنشاء) لتكتمل رسالته على النحو الذي يرمي إليه (الهويميل باديس، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، عدد ٧، بسكرة، ٢٠١١، ص ١٦٦-١٦٧). فالملاحم التداولية في البلاغة ظاهرة، من حيث إنّ البلاغة توفّر الجوانب التداولية ضمن معايير الخطاب، الذي يسعى فيه المتكلم إلى توظيف أدواته لتحقيق تواصل ناجح مع المخاطب ضمن المقامية ومستوى الأداء اللغوي الذي تحدّد ملامحه بتشاركية البلاغة والتداولية.

وإنّ فكرة التراتبية بين التركيب والدلالة والبلاغة استدعت هذا الحديث، والرّبط بينها وبين التداولية التي تتركز على أفعال الكلام، فإذا عرفنا اللّغة بأنّها نظام لإنتاج الكلام وتركيبه، والنحو هو الضابط لاستقامة الكلام، فإننا نبقي عند حدّ إنتاج الكلام دون أداة تضبط جمالية الكلام، فينبغي وجود البلاغة للكشف عن جمالية هذا المنتج، ولعلّ القول بالتكامل بين النحو والبلاغة أولى، إذ تبدأ البلاغة بعملها عندما يستوفي النحو وظيفته (الحباشنة، صابر، ٢٠١١)، وبناءً على تعريف علم الدلالة بأنّه علم يدرس المعنى، تبقى اللّغة مجردة من معالجة الاستعمال وعلاقتها بمستعملها حتّى يصير الأمر إلى التداولية.

وتعدّ الأفعال الكلامية بعداً جوهرياً للتداولية، والفرق بينهما أنّ أفعال الكلام نظرية مستقلة، والتداولية اعتمدت على أسس كثيرة، وكانت نظرية أفعال الكلام أول هذه الأسس، بمعنى أنّ أفعال الكلام تمثّل النواة الأولى للتداولية (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥).

وحقيقة أفعال الكلام التي أسّسها (أوستين)، وطورها (سيرل) هي نتيجة اعتقاد (أوستين)، الذي يرى في المقولات قيمة وأهمية تداولية بناء على مفهوم القصدية في فهم هذه المقولات وتحليلها، فكان البحث عن القصد مبدأً وظفّه

في فك رموز الحدث الكلامي، بناء على الرّبط بين التراكيب وصلتها بالمتكلم وغرضه من الخطاب بعد دراسة الأبعاد التداوليّة للظاهرة اللغويّة (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥)، وتعدّ الفلسفة التحليليّة مصدر المعرفة لهذا المفهوم التداوليّ، وهو الأفعال الكلاميّة؛ فمن وسط التحليل الفلسفيّ انبثقت ظاهرة أفعال الكلام التي كانت بداية ولادة النّيار التداوليّ (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥).

مفهوم الفعل الكلامي:

ولأهميّة مفهوم الفعل الكلامي في التفكير اللغويّ الحديث صار هو المحرّك في الاتجاه اللسانيّ التداوليّ، فهو كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ انجازيّ تأثيريّ، وفضلاً عن ذلك، يعدّ نشاطاً مادّيّاً نحوياً، يتوسل أفعالاً قوليّةً لتحقيق أغراض إنجازيّة (كالطلب والأمر والوعد والوعيد ... إلخ)، وغايات تأثيريّة تخصّ ردود فعل المتلقّي (كالرفض والقبول) (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥)، إذ يشير هذا المفهوم إلى دور كبير لظاهرة أفعال الكلام في تفسير الجانب التواصليّ، بناءً على مكونات هذا الفعل الكلاميّ، وما يتعلّق به من دلالة تحمل علّة الإنجاز والتأثير بوسائل تحتملها المقولة وصيغتها وما يصدر عن هذه الرّسالة الكلاميّة من أثر فعليّ فيمن يتلقاها.

الأفعال الكلاميّة عند (أوستين):

كان تأسيس نظريّة الأفعال الكلاميّة على يد (أوستين) عندما أعاد النّظر في وظيفة اللّغة الإخباريّة وعلاقتها بالواقع، فأتى بفكرة الفعل الإنشائيّ بقصد تطوير وجهة نظر حول اللّغة تهتمّ بقول الرّسالة، ولا تقتصر على مضمونه، وتبع هذه النّظرة التأمليّة وجود مقولات لا تنسحب عليها معايير الصدق والكذب؛ لأنّ هذه المقولات لا "تصف" ولا "تنقل" ولا تقرّر شيئاً البتّة، وليست "صادقة أو كاذبة"، وهي كثيرة. وإنّ قول الجملة يعني تنفيذ عمل (أو جزء من ذلك التنفيذ) (بلانشيه، فيليب، ٢٠٠٧).

فإذا قلت مثلاً: أوصي بنصف مالي للجمعيات الخيريّة، فإنّ هذه العبارة لا تصف شيئاً من وقائع العالم الخارجيّ، ولا يمكن الحكم عليها بالصدق أو

الكذب، وإذا نطقتَ بها فإنك لا تُلقِي قولاً، وإنما تتجزز فعلاً؛ فالقول هنا ليس مجرد كلام، بل هو فعلُ كلام، أو هو فعلٌ كلامي (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢)، وهذا يعني أن (أوستين) ميّز بين صنفين من الأفعال: الإخبارية ووظيفتها رصد وقائع العالم، ويحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب، والأدائية ووظيفتها إنجاز أفعال، أو تأديتها في ظروف مناسبة، وتتميّز عن الإخبارية بأنّها لا ينسحب عليها القول بالصدق أو الكذب (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢).

وانتهى (أوستين) في مراحل بحثه إلى تقسيم الفعل الكلامي إلى ثلاثة أقسام فرعية: أولها فعل القول، ويقصد به وفقاً للمستويات اللغوية "إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة" (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥)، ويشمل هذا المفهوم البناء الشكلي للمقولة المتكوّنة من صوت وتركيب ودلالة؛ "فقولنا مثلاً: (إنّها ستمطر) يمكن أن يفهم معنى الجملة، ومع ذلك لا ندري أهي: إخبار بـ "إنّها ستمطر"، أم تحذير من "عواقب الخروج في الرحلة"، أم "أمر بحمل مظلة"، أم غير ذلك إلا بالرجوع إلى قرائن السياق لتحديد "قصد" المتكلّم أو "غرضه" من الكلام" (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥)، ويرقى هذا المطلب - أي غرض المتكلّم - على المعالجة المعجمية إلى الذهن ودوره في فهم المعنى (عبابنة، يحيى، ٢٠٢٠)، وثانيها الفعل المتضمّن في القول، ويقصد به الفعل الإنجازي الحقيقي وهو المقصود من النظرية برمتها، وهذا ما جعل (أوستين) يسمّي "الوظائف اللسانية الثانوية خلف هذه الأفعال: القوى الإنجازية (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥)، وثالثها الفعل الناتج عن القول، فمع القيام بفعل القول وما يرافقه من فعل متضمّن في القول (القوة)، فقد يكون الفاعل (المتكلّم) قائماً بفعل ثالث هو "التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر، ومن أمثلة تلك الآثار الإقناع، التّضليل، الإرشاد، التّنبيط، ويسمّيه أوستين: الفعل الناتج عن القول، وسمّاه بعضهم "الفعل التّأثيري" (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥)؛ أي أنّ الفعل الكلامي سلسلة صوتية تتشكّل في بنية نحوية يتبعها تحقيق فعل إنجازي، وينتج عنهما تأثير معيّن يتعلّق بالمخاطب، وقد

يرتدّ إلى المتكلم.

(الفعل الكلامي = القول + الإنجاز + التأثير).

وأدرك (أوستين) أنّ الفعل القوليّ عنصر مهمّ لانعقاد الكلام، وأنّ فعل التأثير قد لا يرافق الأفعال جميعها، فبعضها ممّا لا يؤثر في السامع، فانصبّ اهتمامه على الفعل الإنجازيّ، فجدّد تصنيف الأفعال على أساس قوتها الإنجازيّة، وجعلها خمسة أصناف: أفعال الأحكام وهي التي تتمثّل في حكم يصدره قاضٍ أو حكم، وأفعال القرارات التي تتمثّل في اتخاذ قرار بعينه كالإذن، أو الطرد، أو التعيين، وأفعال التعهّد متمثلة في تعهّد المتكلم بفعل شيء مثل الوعد أو الضمان أو القسم، وأفعال السلوك التي تكون ردّ فعل لحدثٍ ما كالاعتذار أو الشكر أو المواساة، وأفعال الإيضاح التي تستخدم لإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأى مثل الاعتراض أو التشكيك أو الإنكار أو الموافقة أو التصويب أو التخطئة (المتوكّل، أحمد، ١٩٨٥).

ومهما يكن من أمر التقسيم عند (أوستين)، فإنّ المسألة مرجعها ما يترتّب على المقولات من طاقة إنجازيّة، وانعكاسات تأثيريّة على المتلقّي والمتكلم تجعل مسألة التّواصل في مسارٍ صحيح بين الطرفين بناءً على السياق الاجتماعيّ. وإنّ أهمّ سمةٍ لنظريّة أفعال الكلام هي التطوريّة، بمعنى أنّها لن تقف عند فكرٍ لسانيّ ثابت؛ لأنّها من متعلّقات التّواصل المبنيّ على القصد، وهذا يفرض مرونة نظريّة أفعال الكلام، لتكون صالحةً بناءً على التداوليّة في تفسير عمليّة التّواصل التي تجري وفق استعمالٍ تابعٍ لمقام اجتماعيّ.

ولمّا كان الأمر كذلك فقد استدعت هذه النظريّة أن تتحرّك من دائرة التأسيس والنشأة إلى الضبط والمعالجة المنهجية، وتمثّلت هذه المرحلة في جهود (سيرل) الذي وضع الأسس المنهجية، فقّدم فكراً جديداً ركّز فيه على الفعل الإنجازيّ والقوة الإنجازيّة؛ لتكون النظريّة بحلّة جديدة (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢).

الأسس المنهجية لأفعال الكلام عند (سيرل):

يعدّ الغرض الذي يتضمّنه القول مكوناً أساسياً من مكونات القوة المتضمّنة في القول، وهذا يؤكّد الترابط بين المقولات ومقاصد المتكلمين، وهو ما قدّمه (سيرل) في سبيل تطوير هذا المشروع الفلسفيّ (صحراوي، مسعود، ٢٠١٥) المتمثّل في تقسيم الأفعال الكلامية، بناءً على النّظر إلى الفعل الإنجازيّ بوصفه وحدة صغرى، وظيفتها الاتّصال اللّغويّ، وأنّ للقوة الإنجازيّة دليلاً يدعى دليل القوة الإنجازيّة، يبيّن نوع الفعل الإنجازيّ الذي يؤدّيه المتكلم بنطقه الجملة وما يتعلّق بذلك من أداءٍ وعلاماتٍ مكتوبة، والفعل الكلاميّ، كونه وحدة اتّصال، غير مقتصر على مقاصد المتكلم، وإنّما هو مرتبط بالعرف اللّغويّ الاجتماعيّ، وهذا جعله يعيد النّظر في شروط الملاءمة، فجعلها أربعة، وطبقها على كثيرٍ من الأفعال الإنجازيّة، وهذه الشّروط هي (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢):

شروط المحتوى القضويّ: ويتحقّق إذا كان للكلام معنىّ قضويّ نسبةً إلى القضية التي تقوم على متحدّث عنه أو مرجع ومتحدّث به أو خبر، والمحتوى القضويّ هو المعنى الأصليّ للقضية، ويتحقّق هذا الشّروط في فعل الوعد مثلاً إذا كان دالاً على حدث في المستقبل يُلزم به المتكلم نفسه.

الشّروط التمهيدية: ويتعلّق تحقيق هذا الشّروط بقدرّة المتكلم على إنجاز الفعل، دون أن يظهر عند كلّ من المتكلم والمخاطب، وأنّ الفعل المطلوب سينجز في المجرى المعتاد للأحداث، أو لا ينجز.

شروط الإخلاص: ويتوقّف تحقيقه على إخلاص المتكلم في أداء الفعل، فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنّه قادر على فعل ما لا يستطيع.

الشّروط الأساسيّة: ويتحقّق في محاولة المتكلم التأثير في السّامع، لينجز الفعل. وبناءً على الأسس المنهجية الثلاثة: الغرض الإنجازيّ، واتّجاه المطابقة، وشروط الإخلاص، فقد جعل الأفعال اللّغويّة خمسة أصناف:

الإخباريات: وغرضها الإنجازي وصف المتكلم واقعة معينة من خلال قضية، وهذا القسم من الأفعال ينسحب عليها الحكم بالصدق أو الكذب، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، وشرط الإخلاص يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها.

التوجيهيات: وغرضها الإنجازي توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين، والمطابقة فيها تتجه من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يظهر في الرغبة الصادقة، ومن أمثلة هذه الأفعال الأمر والنصح والاستعطاف والتشجيع.

الالتزاميات: وغايتها التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل، وتسير المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص القصد، ومن أفعال هذا القسم الوعد والوصية.

التعبيريات: غايتها الإنجازية التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتميز بشرط الإخلاص، ويتعلق إنجازها بشروط المطابقة، ويدخل فيها الشكر، والتهنئة، والمواساة، والاعتذار.

الإعلانيات: أبرز سمة لهذه الأفعال أنّ النجاح في أدائها يتمثل في مطابقة المحتوى القضوي مع العالم الخارجي، فإذا أدبت فعل إعلان الحرب أداءً ناجحاً، فالحرب معلنة، ومن سماتها أيضاً أنها تحدث تغييراً في الوضع القائم، ولا تقتضي عرفاً لغوياً، والمطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا تستلزم شرط الإخلاص (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢).

وأما تقسيم (سيرل) الأفعال بين إنجازية مباشرة وغير مباشرة فقد فرّق بناءً على هذا التقسيم بين ما تُطابق قوّته الإنجازية مقصد المتكلم، وما تختلف أو تُخالف قوّتها الإنجازية مراد المتكلم وهي غير المباشرة، فعندما يقول شخص لآخر: هل تناولني الملح؟ فهذا فعل إنجازي غير مباشر، إذ قوّته الإنجازية الأصلية تدلّ على الاستفهام الذي يحتاج إلى جواب؛ بدليل (هل)، لكنّ الاستفهام غير مراد للمتكلم، بل هو طلب مهذب يؤدي معنى فعل إنجازي مباشر هو: تناولني الملح (نحلة، محمود أحمد، ٢٠٠٢).

وتؤكد هذه السلسلة من التغييرات ومحاولات التطوير المتعلقة بمشروع أفعال الكلام فكرة تطويرية نظرية أفعال الكلام؛ لأنها مرافقة للنشاط الاجتماعي الذي يعتمد على ملابسات سياقية تستلزم التصرف في استعمال المقولات لبلوغ المقاصد، ووفقاً للنموذج النظري عند (أوستين) و(سيرل)، وما قدماه من مفاهيم وتقسيمات لأفعال الكلام، فإن الجانب التطبيقي في هذه الدراسة سيتبع هذه النظرية.

بين أفعال الكلام، ومعاني الكلام:

إن ما وصلت إليه هذه النظرية من أفكار ومبادئ تتعلق بأنواع الأفعال الكلامية، قد جعل بعض الباحثين يقول بمقاربة هذه النظرية بالتقسيم المعروف للمقولات في العربية من وجهة نظر الدرس البلاغي المعروفة بالخبر والإنشاء، ونشأة أفعال الكلام في ظل الفلسفة اللغوية كمبدأ رافض لحصص اللغة بين الصدق والكذب في ضوء وظيفة وصف الواقع حتى طورها (أوستن) و(سيرل) بعده، فصنّف الأفعال وفق نموذج لساني يفسر التواصل في ضوء الاستعمال، وعندما نحاول المقاربة بين هذه النظرية ومبادئها وبين العربية وطاقتها، بعيداً عن ادعاءات أن التراث العربي تضمن نظرية أفعال الكلام، فالمقصود أن خصائص العربية تسمح باستخدامها في النشاط الاجتماعي وتحليل المنتج الأدبي، فقد قسم الكلام إلى أساليب خبرية وإنشائية، ودليله أن الكلام إما أن يقال فيه بالمطابقة للواقع أو عدم المطابقة؛ فهو خبر، وأما إذا لم يحتمل هذا الحكم فهو إنشاء.

والجملة الخبرية هي الجملة التي اشتملت على خبر ما، فمضمونها إخبار عن أمر ما، إيجاباً أو سلباً، والقصد منها الإعلام بأن الحكم الذي اشتملت عليه له واقع خارج العبارة الكلامية مطابق له ... والجملة الإنشائية هي الجملة التي لم تشتمل على خبر، وإنما أنشأ النطق بها حدثاً ما، كإنشاء طلب الفعل، إذا قلت لابنك: اسقني، أو قلت له: اجتهد (الميداني، عبد الرحمن حبنكة، ١٩٩٦). "والأسلوب الإنشائي ينقسم إلى قسمين: إنشاء طلب، وإنشاء غير طلب. ويعني البلاغيون بالإنشاء الطلب ما يستلزم مطلوباً ليس حاصلًا

وقت الطّلب، وبالإنشاء غير الطّلبّي ما لا يستلزم مطلوباً ليس حاصلًا وقت الطّلب" (هارون، عبد السلام، ١٩٨٥).

الجانب التّطبيقي:

التّعريف بالشّاعر:

وُلد الشّاعر محمّد مهدي الجواهريّ سنة ألف وتسعمائة للميلاد في النّجف، وهو ينحدر من أسرة عريقة في العلم والأدب والشّعر، وكان لهذه الأسرة مجلس عامر بالأدب والأدباء يرتاده كبار الشّخصيات الأدبيّة، ودرس الجواهري على عدد من الشّيوخ، وأخذ عنهم النّحو والصّرف والبلاغة والفقه، ونظم الشّعر في وقت مبكر تأثراً ببيئته، واستجابة لموهبة كامنة، وعمل الجواهريّ في التّعليم والصّحافة، ولقّب بشاعر العرب الأكبر، وتميّز شعره بدقّة متناهية في الوصف والتّصوير، وعناية بالغة بالفصيح وحماسة فائقة في الأمور القوميّة ومعاني الوطنيّة (الجواهريّ، محمّد مهدي، ٢٠٠١).

قصيدة "تنويمة الجياع" نشرت في جريدة "الأوقات البغدادية" العدد ٢٨ في ٢٨ آذار ١٩٥١ (الجواهريّ، محمّد مهدي، ٢٠٠١):

جمعت هذه التّجربة الشّعريّة في بنيتها المتناقضات، فقد اتّخذ الشّاعر الفعل الأدائيّ نواة لتشكيل بنية عميقة، تأسست بناء على المجاورة بين الطّلب وما يمنع من إنجازها بطريقة مباشرة، ليتمكّن المتلقّي من فهم ما وراء المستوى السّطحيّ، وتحقيق ما تشكّله الأفعال الكلاميّة بأنواعها من حيثيات إنجازيّة وظّفها الشّاعر لصنع إنجاز مركزيّ متأثّر من تنوع وضعيّات إنجازيّة، لكنّ التّحقيق ليس فيما يحمله الفعل الكلاميّ من إنجاز حرفيّ، ومن جهة أخرى فإنّ النّوم لا يحتاج إلى توجيه وطلب، والنّوم لا يأتلف معه النّداء بقصد طلب الإقبال، ليذهب المتلقّي إلى القصد بناء على تحصيل الدّلالة التي تحملها الأفعال الكلاميّة بلفظها وإنجازها وتأثيرها. ويظهر في بنية القصيدة الاعتماد

بنسبة كبيرة على الأفعال الأدائية (التوجيهيات)، يقول الجواهري في مطلع القصيدة (الجواهري، محمد مهدي، ٢٠٠١):

نامي جِياعَ الشَّعْبِ نامي حَرَسْتُكَ إِلَهَةَ الطَّعامِ

فالمحتوى القضوي للفعل الكلامي المركب (نامي/ جِياعَ الشَّعْبِ) يصف الحقيقة التي يريدها الشاعر، فالفعل (نامي) فعل طلبِي يمثِّلُ قوَّةَ إِنْجَازِيَّةٍ، تستدعي التَّحْقِيقَ، على غير مقتضى الظَّاهر، فالنَّومُ كإِنْجَازٍ لا يَتَحَقَّقُ بِمِصاحِبَةِ النَّدَاءِ وطلب الإقبال، ثم توجيه الطلب مرَّةً أُخرى: نامي، (حرسْتُكَ إِلَهَةَ الطَّعامِ) والقوَّةُ الإِنْجَازِيَّةُ لهذه البنية من الإخباريات الإعلام باستمرار الجوع، فكيف ينجز النَّومُ مع هذه الحال؟ وأمَّا فعل التَّأثير هنا فهو التَّنْبِيه.

نامي فَإِنْ لَمْ تَشْبَعِي مِنْ يَقْظَةٍ فَمِنْ المَنامِ

الفعل اللُّغويّ (نامي) من الطَّلِبَاتِ التي تَتَكَرَّرُ في هذه البنية، وقوَّتُهُ الإِنْجَازِيَّةُ مشروطة بفعل لغويّ آخر (فإن لم تشبعي من يقظة، فمن المنام) وهو من الإخباريات التي تمتدُّ إلى قوَّةِ إِنْجَازِيَّةٍ، هي تحقيق الشَّعْبِ من اليقظة أو المنام، وفعل التَّأثير هنا تحفيز على اليقظة.

نامي على زُبْدِ الوعودِ يُدَافُ في عَسَلِ الكَلَامِ

الفعل اللُّغويّ المكرَّر (نامي على زيد الوعود ...) فعل طلبِي قوَّتُهُ الإِنْجَازِيَّةُ في الوصول إلى مرحلة النَّومِ، والذي يعزِّزُ هذا الإِنْجَازَ سماع الوعود المستقبلية بناء على معسول الكلام، وفعل التَّأثير رفض الواقع.

نامي تَزْرِكُ عَرائِسُ الأَحلامِ في جُنْحِ الظَّلامِ

الفعل اللُّغويّ (نامي) طلب وتوجيه إلى إِنْجَازِ حالة النَّومِ، لأنَّ الفعل اللُّغويّ (تزرِكُ عرائس الأَحلام) من الإخباريات، وإِنْجَازِيَّتُهُ متوقِّفة على الفعل السَّابِق: النَّومِ، من أجل الأَحلام التي تزور النَّائمِ، والتَّأثير هو الاستجابة للمطلوب.

تَنْتَوِّري فُرْصَ الرِّغيفِ كَدَوْرَةَ البَدْرِ الثَّمَامِ

ويتوقَّف على الإِنْجَازِ الذي سيتحقَّق (النَّوم) إِنْجَازٍ آخر هو (تنتوِّري قرص

الرَّغِيفِ (...)، فالإنجاز المتحقَّق - أي النَّوم - شرط الأحلام وشرط إنجاز رؤية الرَّغِيف في الحلم بمشهد رائع، والتأثير استثارة المخاطب لعدم تحقق النَّوم.

وَتَرَى زَرَائِبِكَ الْفِسَاحَ مُبْطَاطٍ بِالرَّخَامِ

وبإنجاز فعل (النَّوم) يتحقَّق إنجاز آخر، هو رؤية المكان (الزرائب) مبطة بالرَّخَامِ، وفعل التأثير هو استثارة الشعب لرفض الواقع.

والنمط التركيبي - الأمر - في الفعل الكلامي (نامي) المتكرَّر في القصيدة أكثر من خمسين مرَّة، لا ينتظر الإنجاز المباشر، فلا يستقيم الأمر بالنَّوم مع طلب الإقبال بالنمط التركيبي النداء، بل تحوَّل إلى إنجاز غير مباشر؛ بمعنى أن الظاهر طلب النَّوم، لكنَّ المحتوى القضوي للسياق الكلامي ينفي الإنجاز الحرفي المباشر، وينتقل إلى الضدِّ، فتصبح قوَّته الإنجازية طلب الصَّحوة والاستيقاظ، والتأثير يكون برفض الواقع المؤلم، كما أظهره السياق، ويؤيد هذا التوجَّه البيت الذي يليه:

نامي على نَعَمِ البَعُوضِ كَأَنَّهُ سَجَعُ الحَمَامِ

فكيف يضمن السياق الإنجاز المباشر في الأمر؟ وقد اجتمع معه وجود البعوض بإزعاجه، فهو يمنع التحقُّق والإنجاز المباشر، فالفعل الكلامي نامي قوَّته الإنجازية: لن تتمكني من النوم في هذه الظروف، والتأثير: الاستعداد لمواجهة هذا الأمر.

نامي على مَهْدِ الأذى وَتوسِّدي حَدَّ الرِّغَامِ

والذي يعزِّز التحوُّل من الفعل الإنجازي المباشر إلى غير المباشر طلب النَّوم على مهد الأذى، فليس يجتمع إنجاز الأمر بالنَّوم مع الأذى، ولا يكون المهد مناسباً لتحقيق النَّوم وإنجازه إذا وجد الأذى، بل لا يتحقَّق الأمر بالنَّوم المباشر، في ظلِّ توسدِّ التراب، فالفعل الطلبي (توسدي) امتداد إلى صرف المخصوص بالخطاب عن الإنجاز المباشر إلى غيره، وهو الانتباه إلى هذه

الظروف القاسية التي لا تُقبل ولا تُحتمل، والتأثير: التحفيز لرفض الواقع.

وَأَسْفَرِشِي صَمَّ الْحَصَى وَتَلَحَّفِي ظِلَّالَ الْغَمَامِ

الفعل الكلامي (استفريشي صمّ الحصى) فعل طلبيّ أو أدائيّ، يكمل إنجاز النّوم من افتراض الحصى، فقوّته الإنجازيّة المباشرة: اتّخذي الحصى فراشاً لأداء أمر النّوم، وهو محال أن ينجز معه النّوم، لينصرف الدّهن إلى الإنجاز غير المباشر، وهو: لن تستطيع النّوم ضمن هذه المعطيات، والذي يعضد هذا الاتجاه الفعل الكلامي: (وتلحفي ظلل الغمام) إذ إنّ قوّته الإنجازيّة: اتّخذي الغمام لحافاً كإنجاز مباشر، وهو ممّا يدعو إلى الانصراف إلى الإنجاز غير المباشر: التّعجب من حالة النّوم في العراء، الذي يظهر سوء الحال، والتأثير الذي يفضي إليه الفعل الكلامي هو عدم الرضا بهذا الواقع المؤلم.

نامي فَقَدْ أَنهَى "مُجِيعُ الشَّعْبِ" أَيَّامَ الصِّيَامِ

تسير بنية القصيدة في توظيف النمط التركيبيّ - الأمر - المتمثّل في (نامي) ولكنّه يقحمه على مجاورة ما يتناقض معه، ليخرجه من إنجازيّة المباشرة إلى إنجازيّة غير مباشرة تستدعي اليقظة، لأنّ الفعل الكلامي (فقد أنهى مجيع الشعب ...) يتطلّب إنجازاً مغايراً، هو سينتهي الجوع أو ستشبعون، وهذا يستدعي اليقظة، والتأثير: الانتباه.

نامي فَقَدْ غَنَى "إِلَهُ الْحَرْبِ" أَلْحَانَ السَّلَامِ

وإجراء الفعل الطلبيّ (نامي) في جوّ من المتناقضات يؤول إلى تحوّل إنجازيّ غير مباشر مفاده لا تنامي، لأنّ الفعل الكلامي (فقد غنى إله الحرب ...) من الإخباريات، وقوّته الإنجازيّة: الحرب قادمة، والتأثير: رفض الواقع.

نامي جِيَاعَ الشَّعْبِ نامي الْفَجْرُ آدَنَ بِأَنْصِرَامِ

وارتبط الفعل الكلامي المتكرّر (نامي) بوقت غير مناسب للنّوم، فهو وقت الاستيقاظ، بمعنى أنّ الإنجاز هنا لا يكون على ظاهر الفعل، بل ينتقل إلى إنجاز غير مباشر، ومفاده لا تستسلمي للنّوم وقت الصّباح، لأنّ الفعل الكلامي

(الفجر آذن بانصرام) إخباري، وهو إعلام بانقضاء الفجر وطلوع الصبح، فإن هذا التركيب قد يؤدي إنجازاً مخالفاً لمقتضى الأمر بالنوم، وهو: استيقظي، والتأثير الحاصل هنا هجر النوم.

وَالشَّمْسُ لَنْ تُؤذِيكَ بَعْدُ بِمَا تَوَهَّجَ مِنْ ضِرَامِ

يجري الأمر في التركيب (نامي) لإنجاز النصح، لأن الفعل الكلامي (الشمس لن تؤذيك ...) الإخباري أيضاً فعل متحوّل إلى إنجازي غير مباشر على اعتبار السياق الخارجي من وصف النوم في العراء، لمن يفترشون الحصى، ويلتحفون الغمام، فكأنه تحذير من حرّ الشمس في الصيف إذا توهجت، وفعل التأثير عدم النوم والغفلة في هذه الظروف، والأمر ليس على هذه الحقيقة، بل هناك إنجاز أكبر تضطلع الأفعال اللغوية في القصيدة لبلورته.

نامي.. غَدَّ يَسْقِيكَ مِنْ عَسَلٍ وَخَمْرٍ أَلْفَ جَامِ

أَجْرَ الدَّلِيلِ وَبَرْدَ أُنْدَةٍ إِلَى العُلْيَا ظَوَامِي

إنجاز أمر النوم على الوعد يجعل الفعل متحوّلاً إلى الإنجاز غير المباشر والاتجاه المعاكس بفعل التناقض في الجمع بين طلب النوم والوعد بالغد بحياة تتصف بالذل؛ لأنّ الفعل الكلامي (غد يسقيك من عسل... أجر الدليل ...) أيضاً هو فعل إخباري لا يمكن أن ينسحب على الواقع، فصدقه محال؛ لذا فإنجازيته تحذير من الحياة القادمة، والتأثير: رفض الوعود الخادعة والمغلّفة.

نامي وَسِيرِي فِي مَنَامِكَ مَا اسْتَطَعْتَ إِلَى الأَمَامِ

ويبدو الشاعر ينفذ الطلب من خلال الفعل الكلامي (نامي)، فيخرج عن ظاهره إلى إنجاز غير مباشر مكوناً طلباً مغايراً: لا تنامي، لأنّ الفعل الكلامي (سيري) لا يتوافق مع (نامي)، ويصبح الإنجاز للفعل (سيري ...) التقدّم للأمام والتغيير، وفعل التأثير: رفض الواقع.

نامي عَلَى تِلْكَ العِظَاتِ العُرِّ مِنْ ذَاكَ الإِمَامِ

يُوصِيكَ أَنْ لَا تُطْعَمِي مِنْ مَالِ رَبِّكَ فِي حُطَامِ

يُوصِيكَ أَنْ تَدْعِيَ الْمَبَاهِجَ وَاللَّذَائِدَ لِلنَّامِ
وَتُعَوِّضِي عَنْ كُلِّ ذَلِكَ بِالسُّجُودِ وَبِالْقِيَامِ

ثمَّ يعود للنمط التركيبِي الأمر (نامي) بمصاحبته لأفعال كلامية تمنع الإنجاز المباشر وتحقيق النّوم، لأنّ الأفعال (يوصيك أن لا تطعمي) تحوّل إلى إنجاز: لا تطعمي، و(يوصيك أن تدعي المباهج ...) تحوّل أيضاً إلى إنجاز دعي المباهج، و(تعوّضي عن كلّ ذلك ...) قوّته الإنجازية متحوّلة أيضاً إلى طلب مفاده عوضِي، فتصبح القوّة الإنجازية للفعل (نامي): لا تنامي في ظلّ هذه المطالب، والتأثير: التّحفيز لرفض هذه الإملاءات.

نامي على الخُطْبِ الطَّوَالِ مِنَ العَطَارِفةِ العِظَامِ

وهذا البيت يتضمّن فعلاً كلامياً يرتبط بكلّ الأفعال المتقدّمة، فغدا الفعل الكلامي (نامي على الخُطْبِ الطَّوَالِ ...) مطلباً إنجازياً مرفوضاً في ظلّ هذه الخطب الطويلة بوصايا باطلة، ليتحوّل فعل النّوم إلى يقظة، والتأثير: مواجهة هذا الباطل.

نامي يُسَاقِطُ رِزْقَكَ المَوْعُودُ فَوْقَكَ بِأَنْتِظَامِ

وصار إنجاز فعل النّوم شرطاً لتحقيق الحصول على الرّزق، وهذا فيه تناقض واضح؛ لأنّ الحصول على الرّزق لا يكون إلا بالحركة والسّعي، فينبني على هذا التّجاور المتناقض تحوّل إلى إنجاز غير مباشر مفاده: لا تنامي، ليكون النّظم منطقياً في إنجاز الفعل الكلامي (يساقط رزقك الموعود ...)؛ فالاعتماد على الوعود الكاذبة لن يكون سبيلاً لتحقيق الرّزق وتحصيله، وأمّا التّأثير المتنامي في بنية القصيدة فهو رفض الواقع المؤلم.

نامي على المَجْدِ القَدِيمِ وَفَوْقَ كَوْمٍ مِنْ عِظَامِ

ما زال الشّاعر يعتمد في بنية القصيدة على توظيف الفعل الكلامي الطلبي (نامي) وليس الإنجاز المقصود منه أن يكون على ظاهره، فإذا استحضر ما وراء الأمر هنا سيخرج حتماً عن إنجازيته المباشرة إلى إنجاز غير

مباشر، فالنوم لا يكون متحصلاً على أمجاد قديمة لم يعد منها سوى الآثار، والجاثمة في التراب، وإعمال الذهن في الفعل الطلبي هنا لأداء استدعى اليقظة والتنبه، والتأثير: استنهاض الهمم طلباً للتغيير.

تِيهِي بِأَشْبَاهِ الْعِصَامِيِّينَ! مِنْكَ عَلَى "عِصَامٍ"

الرَّافِعِينَ الْهَامَ مِنْ جُنُثِ فَرَشْتِ لَهُمْ وَهَامِ

وَالْوَاحِمِينَ وَمِنْ دِمَائِكَ يَرْتَوِي شَرُّهُ الْوَحَامِ

وهذا الفعل الكلامي الطلبي (تيهي) يتوافق مع استحضار مشهد المجد القديم الذي أصبح مجرد تاريخ، وينصرف الذهن عن الإنجاز المباشر إلى إنجاز غير مباشر، قد يبعث على التعجب من الفخر بمن يدعون العصاميّة، وقد يكون منصرفاً إلى طلب آخر مفاده: لا تتخذع بمن يدعون العصاميّة، التي قامت على أكتاف الشعب، والتأثير: نبذ أشباه العصاميين. ويتجلى ادعاء صنع المجد والعصاميّة في هيئة السير بهامة مرفوعة، والذي حملهم على هذا الغفلة التي عاشها الشعب، واعتاد الطّغاة اشتهاء دماء الشعب، يروون ذلك النّهم من دمائه، فالأفعال الكلاميّة الإخباريّة (من جنث فرشت لهم وهام، ومن دمائك يرتوي شره الوحام) قد تحوّلت من الإنجاز الإخباري إلى إنجاز غير مباشر بصيغة أدائيّة مفادها: قفوا في وجه الطّغاة الذين هذه أفعالهم مع الشعب، والتأثير الناجز أيضاً: بناء الرّفص لهذا الواقع.

نَامِي فَإِنَّ الْوَحْدَةَ الْعِصْمَاءَ تَطْلُبُ أَنْ تَنَامِي

وعاد الشّاعر بناء على تكرار الفعل الكلامي الطلبي (نامي) إلى جعل إنجازه شرطاً أدائياً لإنجاز الفعل الخبري الإثباتي (إنّ الوحدة العصماء تطلب أن تنامي) وهو ممّا مال إليه الشّاعر منذ البداية: الجمع بين التناقضات، لأنّ الوحدة الوثقى لا تتجز في حيز فعل النّوم، ليخرج إلى إنجاز اليقظة، وينشأ عنه فعل تأثير الرّفص.

نَامِي جِيَاعَ الشَّعْبِ نَامِي النَّوْمُ مِنْ نِعَمِ السَّلَامِ

تَتَوَحَّدُ الْأَحْزَابُ فِيهِ وَيُبْقَى خَطَرُ الصَّدَامِ

تَهَذَا الْجُمُوعُ بِهِ وَتَسْتَعْنِي الصُّفُوفُ عَنِ انْقِسَامِ

لقد جعل الشاعر الفعل الأدائي (نامي) يحمل قوة إنجازية مركزية، وينبني عليها إنجاز إخباري ليكون من نعم السلام، ويمتد إلى إنجاز وحدة الأحزاب، وانقضاء الصدام، والوصول في النهاية إلى تحقيق الهدوء، وإنجاز الاستغناء عن الانقسام، وتحقيق الوحدة، وهذا التيار من جمع النوم مع توحد الأحزاب، والتخلص من الصدام، والاستغناء عن الانقسام، يحمل موقف التعجب، وانعكاس الإنجاز، لتتشكل قوة إنجازية تغير مجرى الأمور، والتأثير المتكون هو النهوض ضد الواقع السياسي.

إِنَّ الْحَمَاقَةَ أَنْ تَشُقِّي بِالنُّهُوضِ عَصَا الْوِئَامِ

يبدو في البيت التحوّل إلى استعمال الفعل الإخباري (إن الحماقة أن تشقي ...) وقوته الإنجازية: لا ترتكبي حماقة النهوض وتفنعي الفرقة، وبما أن بناء القصيدة قام على متناقضات، ليكسب النصّ دلالة انعكاس في ما تحتمله أفعال الكلام، فلا يكون الإخبار هنا هو الإنجاز المقصود، بل الإنجاز غير المباشر هنا هو النهوض ضد السياسة الظالمة، والتأثير هو التحرك ضد الظلم.

وَالطَّيِّشُ أَنْ لَا تَلْجِي مِنْ حَاكِمِيكَ إِلَى اخْتِكَامِ

وبالأسلوب نفسه في توظيف الفعل الإخباري، كما ظهر في البيت السابق، فإنّ الفعل الإخباري هنا (والطّيش أن لا تلجي ...) غادر مهمة الإنجاز الإخباري المباشر، إلى غير المباشر، ومفاده: لا تطلبي الخصومة ضد الحكام وهم القائمون بمهمة الحكم؛ لأنّ النتيجة محسومة، والتأثير المتنامي هو رفض الواقع المرّ.

النَّفْسُ كَالْفَرَسِ الْجَمُوحِ وَعَقْلُهَا مِثْلُ اللَّجَامِ

والرسالة التي يتضمّنها هذا البيت عمدة الخطاب الشعري؛ لأنّ الفعل الكلامي الإخباري في البيت يمهد لإنجاز التصرف بحكمة، والتأثير المتصل

ببنية القصيدة: النهضة ضد الظلم، والذي يؤيد الإنجاز والتأثير هنا المناسبة بينه وبين الأفعال الكلامية السابقة التي تستثير عقل المخاطب لأدراك حجم المعاناة التي يعيشها، وحالة الغفلة التي تحيط به، فلا بد من التنبيه ومخاطبة العقل؛ لتحقيق الإنجاز المناسب لبنية النص الشعري.

نامي فنومك فنتة إيقاظها شر الأثام

يعود الشاعر هنا إلى توظيف الفعل الأدائي الطلبي (نامي)، لتحقيق الإنجاز المبني على الضدية، فهو لا يطلب النوم، بل يرمي إلى إنجاز غير مباشر هو: تيقظي، بناء على مجاورة الفعل الطلبي (نامي) للفعل الإخباري (فنومك فنتة) فلا يستقيم طلب النوم، ونعته بالفتنة، ليحمل الفعل الخبري إنجازاً آخر هو: استعدّي لمواجهة الفتنة، لأنه أتبعه بفعل إخباري آخر (إيقاظها شر الأثام) بمعنى أن النوم والغفلة هما الفتنة، وهكذا يكون الإنجاز الذي يحققه الفعل الإخباري الأخير هو: تخلصي من الفتنة، والتأثير هو نهضة وثورة ضد الوضع المتشكّل في القصيدة.

هل غير أن تيقظي فتعاودي كرّ الخصام

أتجه الشاعر في البيت إلى نمط تركيبّي جديد، هو الاستفهام، فالفعل الكلامي (هل غير أن تيقظي) والسؤال هنا لا ينتظر إنجاز الإجابة، بل ينتظر إنجازاً متحوّلاً، هو: تيقظي، وينبني عليه إنجاز آخر للفعل الكلامي (فتعاودي كرّ الخصام)، وهو: عاودي مجابهة الخصوم، والتأثير: التوجّه لرفض الظلم الواقع على الشعب.

نامي توقّ بك الصّحافة من شكوكٍ واتّهام

لا يستغني الشاعر في خطابه عن النمط التركيبّي المتمثّل في أسلوب الأمر، لأنّ الفعل الأدائي الطلبي (نامي) يمثّل أساساً مهماً في تحقيق الإنجاز المركزي الذي تشكّله بنية القصيدة، وقد جعله الشاعر في هذا البيت شرطاً لإنجاز آخر، هو (توقّ بك الصّحافة من شكوكٍ)، والقوة الإنجازيّة لهذا الفعل

الكلامي: الاستعانة بالصحافة الحرّة من أجل الصّحة، والتأثير هو الاستعداد لما سيحدث نتيجة الصّحة.

خَلَّ الهَمَامَ! بِ [فَضْلٍ] * نَوْمِكَ يَنْقِي شَرَّ الهَمَامِ

الفعل الكلامي (خَلَّ الهَمَامَ بفضل نومك ينقي ...) من الأفعال الأدائية الطليبية، فإنجاز النوم هنا يسمح بإنجاز منع الشرّ، وليس هذا ما يريده الشاعر، فهو عندما وجد الأمة في غفلة أراد أن يحيي فيها نفس اليقظة والنهضة ضدّ الظلم، فاتخذ أسلوب الأمر بالنوم، ويرافقه بما يمنعه، ليحقق الإنجاز المقصود وهو الصّحة، ويحقق التأثير وهو الاستجابة.

وَتَجَنَّبِي الشُّبُهَاتِ فِي وَعْيِي سَيُوصَمُ بِأَجْتِرَامِ

ويتبدى هنا أنّ الشاعر يريد تحقيق قوّة إنجازيّة تناسب طموحه في بنية القصيدة، فيوظف الفعل الكلامي الطليبي. والفعل الكلامي (تجنّبي الشبهات ...) ليس ينتظر المباشرة في الإنجاز؛ لأنّ هناك ما ينقضه، فكيف يكون الوعي جريمة؟ فالإنجاز الذي يستدعيه الفعل هو: تحملي كلّ المصاعب، والتأثير هو عدم الاكتراث لتبعات الصّحة والمواجهة.

نَامِي فَجِلْدُكَ لَا يُطِيقُ إِذَا صَحَا وَقَعَ السَّهَامِ

ورسمت القصيدة مشهد الغفلة والنوم الذي يعيشه الشعب، ورغم محاولات الشاعر في تحقيق اليقظة، ومع تنامي هذا الهدف لديه، فقد وصل إلى مرحلة الإنجاز عن طريق التقرّيع، وتوظيف الإحساس، فتكرار الفعل (نامي) بإيقاعه الصوتي فيه محاولات الإيقاظ، وأمّا الإخباري (فجلدك لا يطيق ...) ففيه إنجاز غير مباشر هو التقرّيع، لتحقيق الإنجاز المركزي، وهو اليقظة، لتصبح قوّته الإنجازيّة: استيقظي أيتها الأمة، والتأثير هو استثارة حفيظة النيام.

نَامِي وَخَلِّي اللَّائِمِينَ فَمَا يَضِيرُكَ أَنْ تُلَامِي!

لا يزال الفعل الطليبي (نامي) هو أساس حركة المعنى، وتنامي المقصد، فلمّا وجد الأمة تنام رغم ما فيها، ولا تأبه باللوم الحقه بفعل طليبي آخر (وخلّي

اللائمين)، وموضوع اللوم يمنع إنجاز النوم، وأما الفعل الإخباري (فما يضيرك أن تلامي) فحرك القوة الإنجازية إلى: اترك الغفلة واستيقظي، فقد أصبحت في موضع اللوم على هذه الحال، والتأثير: تأنيب الضمير على الغفلة.

نامي فجدران السجون تعج بالموث الزوام

ويمكن أن يكون الفعل الطلبي (نامي) متضمنًا إنجازًا غير مباشر هو التعجب لحال الأمة كيف تنام، والسجون قد امتلأت ظلمًا، بمعنى أن الفعل الإخباري (فجدران السجون ...) يسير إلى إنجاز غير إخباري هو: تحركي لإنصاف المظلوم، ومن سجن ظلمًا، والتأثير هو الإحساس بمن وقع عليه الظلم ومن نصره.

ولأنت أحوج بعد أتعاب الرضوخ إلى جمام

والفعل الكلامي الإخباري (لأنت أحوج ... إلى جمام)، رغم اقترانه بتوكيد، يستدعي إنجازًا غير متوقع، فالرضوخ لا يسبب التعب والحاجة إلى النوم، فيتشكل هنا إنجاز تقريع وسخرية بسبب النوم الناتج عن تعب الرضوخ، ليستدعي الحركة والصحة.

إن "الرعاة!" الساهرين سيمنعونك أن تضامي

ونقتضي بنية القصيدة توظيف الأفعال الكلامية بطريقة تؤدي الدلالة والقصيدة من الرسالة الشعرية؛ فالفعل الإخباري هنا (إن الرعاة الساهرين ...) لا يستقيم أن يكون للإنجاز الإخباري المباشر، مثلما أنه لا ينسجم مع ما رسمه في ذهن الرعية من محاولة النوم في ظروف الجوع، والقهر، والبيئة غير المناسبة، وهذا يؤكد أن الإخبار خرج إلى إنجاز آخر، فيصبح مؤداه: لا تنامي لئلا يكون مصيرك الضيم بفعل الرعاة، والتأثير هو النفور من السياسة المتبعة مع الشعب.

نامي على جور كما حمل الرضيع على الفطام

وتتكشف في هذا البيت إشارات عن موضوع النوم الذي يمر به الشعب،

فالفعل الطلبيّ (نامي على جور) وليس الطلب هو ما يراد إنجازه، لأنّ المفارقة التي ظهرت في الفعل الكلاميّ تؤكّد استبعاد الإنجاز المباشر، فهل يعقل أن ينام الإنسان ويستغرق في النوم، وهو يشعر بالظلم؟ ومجرد الشعور بالظلم يجعل الإنسان متيقّضاً، تماماً كما في الإخبار (كما حمل الرضيع على الفطام) وليس المقصود هنا الرضيع، وإنما مشابهة حال النائم رغم الظلم، بحال الطفل المفطوم قسراً، فيبدو الإنجاز للفعل الكلاميّ الطلبيّ هو التقرّيع على وصول الأمة إلى حال النوم رغم الجور والظلم، ليحرّك عامل التأثير فيها وهو اليقظة، ومجابهة الظلم.

أَعْطِيَ الْقِيَادَةَ لِلْقَضَاءِ وَحَكَمِيهِ فِي الزَّمَامِ

والذي يناسب وجود الظلم هو التوجّه إلى القضاء من أجل الإنصاف وإحقاق الحقّ، ف جاء في البيت (أعطي القيادة للقضاء) فعل طلبيّ يتمثّل في إنجاز متحقّق، وهو: الجبّي إلى القضاء، ليكون سيّد الموقف في تحقيق العدالة ورفع الظلم، وعطف عليه (حكّمه في الزمام) أيضاً، وهو فعل طلبيّ يتضمّن قوّة إنجaziّة، هي تحريك مسألة المطالبة بالحقوق عن طريق القضاء، والتأثير هنا اللجوء إلى القضاء بوصفه جهة قياديّة، وصاحبة قرار في منع الظلم وفي إحقاق الحقّ.

وَاسْتَسْلِمِي لِلْحَادِثَاتِ الْمُشْفِقَاتِ عَلَى النَّيَامِ

وقد يبدو استخدام أسلوب الأمر كنمط تركيبيّ سبيلاً لتأسيس الدلالة المطلوبة، وبخاصّة أنّ الطلب قد لا يكون مقصوداً لذاته، بل يتّجه إلى إنجاز غير مباشر، فغاية النصّ هي تغيير الواقع؛ واقع الأمة، من الغفلة والنوم. ولإثارة حفيظة المخاطب يصبح أسلوب الأمر أداة فاعلة في إنجاز السخرية والتقرّيع، لتحوّل الأمة إلى حالة تمنع النوم، وتحقّق الصّحة المرجوّة، وبهذا يتفاعل الإنجاز المتحقّق لإنتاج التأثير المقصود، وهو تحفيز الأمة إلى تحمّل كلّ تبعات اليقظة.

إِنَّ النَّيْقِظَ - لَوْ عَلِمَتْ - طَلَبَةُ الْمَوْتِ الزُّرَامِ

وحين وصل الشاعر إلى مسألة اليقظة، بدأ تحذير الأمة من اليقظة وتبعاتها، فالفعل الإخباري (إِنَّ التَّيَقُّظَ طَلِيْعَةُ الْمَوْتِ ...) قد يستبعد الإنجاز الإخباري، إلى تحوّل غير مباشر، لاستكمال مسيرة التحفيز والإثارة المبنية على التّهكّم، والتذكير بالأحوال الصعبة أحياناً، فالقوة الإنجازية للفعل الإخباري: التحذير من تبعات التيقّظ، لأنّه قد ينبني عليه مجابهة، وتكون سبباً في الموت المحقّق، والتأثير هنا تحمل تبعات اليقظة.

وَالْوَعْيُ سَيْفٌ يُبْتَلَى
يَوْمَ النَّقَارِعِ بِأَنْثِلَامِ

ولمّا كان الوعي سبباً في المطالبة بالحقوق، ومجابهة الظلم، فقد بني الإنجاز هنا على جهة إخبارية (الوعي سيف) لأنّه من أسباب القوة في المطالبة بالحقوق، فكان الإنجاز المتحقّق إخبارياً، لكنّه أتبعه بفعل إخباري آخر (يُبْتَلَى يَوْمَ النَّقَارِعِ ...) لينحرف عن إنجازيته المباشرة إلى قوة إنجازية غير مباشرة هي: استعداد للمقارعة وتبعاتها، والتأثير: الحماس والشجاعة.

نَامِي شِدَاةَ الطُّهْرِ نَامِي
يَا دُرَّةَ بَيْنَ الرُّكَامِ

وبعد أن انتهى الشاعر من بسط الظروف، وملابسات الحياة القاسية الناشئة عن الظلم مال إلى توظيف النمط التركيبي (نامي) لتحقيق إنجاز غير مباشر هو التّعجب، لكنّه استعمل نمطاً تركيبياً يحقّق الصّحة واليقظة (شداة الطهر) وليس الإنجاز المقصود طلب الإقبال، بل فيه فخر وتعظيم كما ظهر في نداء آخر: (يا دُرَّةَ بَيْنَ الرُّكَامِ) فالفعل الطلبيّ هنا لا يستدعي أيضاً طلب الإقبال، بل تحقيق الفخر والتّعظيم، ليتمكّن من تحقيق الإنجاز المركزي المقصود، وهو اليقظة والوعي، والتأثير هو: استنهاض الهمة والحماس.

يَا نَبْتَةَ الْبَلْوَى وَيَا
وَرْدًا تَرَعَّرَعَ فِي أَهْتِضَامِ

والإنجاز المتحقّق من النداء هنا طلب الإقبال، لكنّه قد يخرج إلى إنجاز غير مباشر وفق ما تقتضيه معطيات السياق، بمعنى أنّ الإنجاز المتحوّل هنا هو إظهار التحسّر لحال الأمة، وأمّا التأثير فهو الرّفص للواقع التي تعيشه.

والنمط التركيبية المتمثل في النداء مناسب لإيقاظ الأمة التي نامت، أو أوشكت أن تنام رغم الظلم، لكنّ الفعل الكلامي (يا نبتة البلوى، ويا وردًا ترعرع، ...) يتّجه إلى الإنجاز غير المباشر لتحقيق التحسّر على حال الأمة، وتنامي التأثير في استنارة الشعب ليستيقظ من غفلته.

يا حُرَّةَ لَمْ تَدْرِ ما مَعْنَى أَضْطِغَانٍ وَأَنْتِ قَامِ!

يا شُعْلَةَ النُّورِ التي تُعْشِي العُيُونَ بِلا اضْطِرَامِ!

وما دامت الأمة تسير نحو الصّحة واليقظة، فهي محطّ التعظيم المتحصّل من القوّة الإنجازيّة للنمط التركيبية المتمثل في النداء (يا شعلة النور ...)؛ لأنّ الحقّ ومن يطالب به يكون كالنور الذي يسيطر على النّظر دون أن يتمثّل في الاشتعال والنّار، والتأثير هنا يؤوّل إلى تحفيز الهمم بحماسة من أجل النّهضة والثّورة.

سُبْحَانَ رَبِّكَ صُورَةَ تزهو على الصّورِ الوِسَامِ

ورغم ما تعانيه البلاد، ويكادها الشعب من قسوة الظلم في الحياة، فإنّ الشّاعر يرسم صورة تستدعي الفعل الكلامي (سبحان ربك صورة ...) من التّعبيّرات التي تحقّق قوّة إنجازيّة للتّعجب، وتحقّق قوّة إنجازيّة في التّعبير عن المشاعر تجاه بلده وشعبه.

إِذْ تَخْتَفِينِ بِلا اهْتِمَامِ أَوْ تُسْفِرِينَ بِلا لِيَامِ

ورغم هذه الصّورة المشرقة للأمة، فإنّها تعاني التّهميش وعدم الاهتمام، بناءً على الفعل الكلامي (إذ تختفين بلا اهتمام، أو تسفرين ...)، فاستدعي الفعل الإخباري إنجازاً غير مباشر هو اجعلي لغيابك أو وجودك قيمة يدركها الطّغاة، كي لا يتمادوا في ظلمهم، والتأثير هو التّحرّك باتجاه تحقيق الذات.

كَمْ تَصْمُدِينَ عَلَى العِتَابِ وَتَسْخَرِينَ مَنَ المَلامِ!

والفعل الكلامي (كم تصمدين على العتاب) من الأفعال الأدائية، لكنّه متحوّل إلى قوّة إنجازيّة غير مباشرة، تتضمّن التّعجب، من الصّمود أمام

العتاب، وكذلك (و"كم" تسخرين من الملام) فيه إنجاز تعجب من السخرية من اللوم، لكنّ الفعلين يسمحان بإنجاز آخر هو: غيّرِي من عادة اللامبالاة تُجاه ما يحدث، والتأثير هو التوجّه إلى الاهتمام.

نامي جِياعِ الشَّعبِ نامي النَّوْمُ أَرعى لِلذَّمَامِ

عاد الشاعر في نهاية القصيدة إلى النمط التركيبي المتمثل في الفعل الكلامي (نامي) مع إصراره على تحقيق قوة إنجaziّة مركزية هي استيقظي أيتها الأمة، وأتبعه بالفعل الكلامي (جِياع الشعب) كفعل أدائيّ يحقّق قوة إنجaziّة تتناقض مع حالة النوم، وهي تنبيهها وإيقاظها من الغفلة، لأنّ الفعل الإخباري (النوم أَرعى للذّمَام) ليس إخبارًا، وإنما هو تحوّل إلى طلب التيقّظ، لأنّ رعاية الذّم تحتاج إلى الوعي، والتأثير المتحصّل هنا هو التّهوض من الغفلة.

وَالنَّوْمُ أَدعى لِلنُّزُولِ عَلَى السَّكِينَةِ وَالنَّظَامِ

وهذا مرتبط بما سبق من أفعال كلامية، فالفعل الإخباري (النوم أَدعى ...) أيضًا ينقض مطلب النوم؛ لأنّ النوم لا يجلب السكينة، والنظام في ظلّ الظلم والقهر، ليتحوّل الفعل الإخباري إلى فعل إنجaziّ غير مباشر، هو: اطلبي السكينة والنظام بالتيقّظ، والتأثير الاستيقاظ من الغفلة.

نامي جِياعِ الشَّعبِ لا تُعنى بِسَقَطٍ مَنْ كَلَامِي

ولازمة (نامي جِياع الشعب) لإنجاز التذكير بحالة الغفلة رغم الجوع. وبعد استعراض المشهد المرير من ظروف الحياة القاسية والظلم، اتّجه إلى توظيف فعل كلامي أدائيّ (لا تعني بسقط ...) ليكسبه قوة إنجaziّة مفادها: تذكّري كلامي جيّدًا، ليكون محفّزًا على اليقظة، للنفاذ إلى التأثير المطلوب وهو التنبّه، والاستيقاظ.

نامي فَمَا كَانَ الْقَصِيدُ سِوى خُرَيْزٍ فِي نِظَامِ

ودليل طلب ما يناهض النوم ويمنعه (نامي) رغم ما سمعت من القصيد الذي تجاوز مئة بيت، وصفها بِ (فما كان القصيد سوى خريز)، ليثبت لهذه

الأمة أنّ كلّ مشاهد الجوع، والفقر، والقهر، والظلم لم تنفع في إحداث النهضة، وظلّ النّوم مسيطراً، فكيف بأبيات الشّعْر التي نعتها بالخريز، للوصول إلى إنجاز السّخرية من حالة النّوم رغم كلّ هذه الطّروف.

نامي فَقَدْ حُبَّ العَمَاءُ عَنِ المَسَاوِيِ وَالتَّعَامِيِ

وحدث النّوم الذي استمرّ في بنية القصيدة رغم ما في الأمة من جوع وقهر، جعل منه موضوعاً مهماً، وهو إنجاز الصّحة بأساليب متنوّعة، حيث لا ينفع التّعامي عن المساوي التي يعاني منها الشّعب، فيصبح إنجاز الفعل الإخباري هنا حتّى على اليقظة.

نَامِي فَبُنُسَ مَطَامِعِ الوَاعِيْنَ! مِنْ سَيْفِ كَهَامِ

إنّ مشروع النهضة الذي أراده الشّاعر لا تكفيه أفعال فردية، لذا نجده توجّه إلى توظيف الفعل الكلامي (نامي) في حيز فعل كلامي آخر؛ لإنجاز ذمّ الاتكال على عمل فردي لا يحقّق النتيجة المطلوبة، فغدا كسيف كليل لا يقطع، وهو تمهيد لإنجاز النهضة والصّحة الشّاملة للأمة، والتأثير هو التّحرّك إلى الثّورة.

نامي: إِلَيْكَ تَحِيَّتِي وَعَلَيْكَ، نَائِمَةٌ سَلَامِي

ويبدو أنّه يئس من تحقيق الصّحة واليقظة، فعدّل في نهاية القصيدة، بعد تكرار الفعل الأدائي (نامي)، إلى إنجاز ما يقصد إليه من التّيقّظ، فعدّل إلى إلقاء التّحية، بناء على الفعل الإخباري (إليك تحيتي، وعليك نائمة سلامي)، إلى إنجاز مشهد ساخر من هذا الوضع الرّاهن الذي تقابله الأمة بالنّوم والتّخاذل.

نامي جِيَاعِ الشَّعْبِ نَامِي حَرَسْتُكَ آلِهَةَ الطَّعَامِ

وكان ختام هذه الرّسالة الشّعريّة بهذا البيت الذي افتتح به القصيدة، وبالأفعال الكلامية نفسها لإنجاز التّنبية من حالة النّوم، والتّدكير بحالة الجوع التي يمتنع معها النّوم، واستمرار هذا الجوع، إذا لم يكن هناك يقظة، وصحة تجابه أسباب الجوع والقهر والظلم.

"تنويع الجياح" منظومة شعرية بنيت لتشكيل قوة إنجازية مركزية، بناء على معطيات الجوع والظلم والقهر، وسوء الأحوال المعيشية، وانعدام البيئة الصحية، وانتشار الأمراض، وغير ذلك من الأحوال السيئة التي رسمها الشاعر في هذه المنظومة، وقد كان يطمح إلى نهضة شاملة وثورة عامة، بناء على طلب النوم بما يمنعه من النداء، والتذكير بما يسبب الصحة إلى هذه النهضة، التي تجلب الخير للأمة؛ فتكسر الظلم، وتحقق العدل، وتشبع الجياح، وتؤسس لهم بيئة صالحة تتسجم مع الإنسانية، ولم يأل الشاعر جهداً في جعل الأمة تتحرك نحو اليقظة، وتغادر نومها وغفلتها.

الخاتمة:

قاربنا في هذه الدراسة قصيدة "تنويع الجياح" للجواهري؛ بغية الكشف عن الإنجاز والتأثير في بعض أنماطها التركيبية: الأمر، والنداء. وخلص البحث إلى عدد من النتائج يمكن إجمالها في ما يأتي:

- أهم سمّة لنظرية أفعال الكلام هي التطورية، بمعنى أنها لا تقف عند فكر لسانيّ ثابت؛ لأنها من متعلقات التّواصل المبنيّ على القصد، وهذا يفرض مرونة نظرية أفعال الكلام، لتكون صالحة بناءً على التداولية في تفسير عملية التّواصل التي تجري وفق استعمالٍ تابعٍ لمقام اجتماعي.
- الاتجاه الإنجازي المطبق على قصيدة "تنويع الجياح" أداة مهمّة في كشف التحوّلات الدلالية للوصول إلى عمق الدلالة التي تكمن في أفعال الكلام.
- لا يمكن فصل مستوى الإنجاز عن التأثير؛ لأنّ فعل القول عندما يضمن الإنجاز، يحدث تأثيراً يتناسب مع دلالة المقولات.
- الاعتماد في بناء القصيدة على الأفعال الأدائية (التوجيهيات) وتعمد التكرار يؤوّل إلى تأسيس إنجاز مركزيّ يُنتج الدلالة التي تشكّل بنية عميقة تستدعي إجراء ما وراء السياق.
- إنّ أفعال التوجيهيات أفعال مركزية، تتضمنّ قوة إنجازية لبنية القصيدة، بحكم دلالة الاستعمال، الذي يُظهر القصد.
- قد تُطوّع الأفعال الإخبارية، في سياق معيّن، من أجل القصد، فتتضمّن طاقة إنجازية أخرى، غير الإخبار، ووصف القضية التي يتضمّنها الفعل اللغوي.

المراجع:

- ١- بلاتشيه، فيليب، التداوليّة من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر، ط١، سوريا، ٢٠٠٧، ص٥٣-٥٤.
- ٢- جاك موشلار، آن رويول، التداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل، تر: سيف الدّين دغموس، محمّد الشّيبانيّ، المنظّمة العربيّة للترجمة، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣، ص٢٨.
- ٣- الجواهريّ، محمّد مهدي، الأعمال الشعريّة الكاملة (المجموعة الكاملة ١ - ٧)، دار الحرّيّة للطباعة والنّشر، بغداد، ط٢، ٢٠٠١، ص٦-٥١، ص٦١٠-٦١٤.
- ٤- الحباشة، صابر، مغامرة المعنى من النّحو إلى التّداوليّة، صفحات للدراسات والنّشر، سوريا، ٢٠١١، ص٤٠.
- ٥- زيدان، محمود فهمي، في فلسفة اللّغة، دار النهضة العربيّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص١٣.
- ٦- شاهين، أحمد فهد صالح، النّظريّة التّداوليّة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠١٥، ص٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٥.
- ٧- صحراوي مسعود، التّداوليّة عند العلماء العرب: دراسة تداوليّة لظاهرة "الأفعال الكلاميّة" في التّراث اللّسانيّ العربيّ، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠١٥، ص٥، ١٨، ٢٠، ١٠، ١٧، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤.
- ٨- عبابنة، يحيى، مقدّمة في اللّسانيّات الإدراكيّة: تأملات في النّظريّة اللّغويّة الحديثة، ركاز للنّشر والتّوزيع، إربد، ٢٠٢٠، ص٦٠.
- ٩- عبد الحقّ، صلاح إسماعيل، التّحليل اللّغويّ عند مدرسة أكسفورد، دار التّطوير للطباعة والنّشر، بيروت، ١٩٩٣، ص١٢.
- ١٠- عمر، أحمد مختار، علم الدّلالة، عالم الكتب، ط٧، القاهرة، ٢٠٠٩، ص١١.

- ١١- فرانسواز أرمينكو - المقاربة التداولية، تر: سعيد علّوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، ١٩٦٨، ص ٩، ص ٢٩٩.
- ١٢- المتوكّل، أحمد، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، المغرب، ١٩٨٥، ص ٤٦.
- ١٣- ابن منظور، لسان العرب، (حمل)، دار صادر، بيروت، ج ١١، ص ٢٥٢.
- ١٤- الميداني، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦، ص ١٦٦-١٦٧.
- ١٥- نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢، ص ١٤، ٩، ٦٢، ٦٣، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١.
- ١٦- هارون، عبد السلام، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط ٣، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٤.

الأبحاث:

- ١- الهويل باديس، التداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، عدد ٧، بسكرة، ٢٠١١، ص ١٦٦-١٦٧.

المواقع الإلكترونية:

<https://paldf.net/f/node/404746>

* صيغة البيت في جريدة "الأوقات البغدائية" العدد ٢٨، تاريخ ٢٨ آذار ١٩٥١ هي: (خَلَّ الهُمَامَ! بِنَوْمِكِ يَنْقِي شَرَّ الهُمَامِ)، والصَّوَاب: (خَلَّ الهُمَامَ! بِفَضْلِ نَوْمِكِ يَنْقِي شَرَّ الهُمَامِ)؛ لإقامة وزن البيت، وهذا ما تنبته بعض المواقع الإلكترونية. انظر على سبيل المثال:

<https://paldf.net/f/node/404746>.